

لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله سبحانه اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ، بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين ، كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ، وأن يصطرع في كيانه الخير والشر ، وأن يتسبى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله وتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله سبحانه لإبليس عليه اللعنة في إبعاده هذا الأخير ، كما صرح بإجابته في إنظاره ، إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طرداً لا معقب عليه ، طرده مذموماً مقهوراً ، وإبعاده بملء جهنم منه ومن يتبعه من البشر ويضل معه : ﴿ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعل منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ ..

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه في معرفته بالله واعتقاده بألوهيته ، ثم في رفض حاكمية الله وقضائه ، وادعاء أن له الحق في إعادة النظر في أوامر الله ، وفي تحكيم منطقته هو في تنفيذها أو عدم تنفيذها .. كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلاً .. وهذا وذاك كلاهما اتباع للشيطان ، جزاؤه جهنم مع الشيطان !

لقد جعل الله سبحانه لإبليس وقيله فرصة الإغواء ، وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقاً للابتلاء ، الذى قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ، وتجعله به خلقاً متفرداً في خصائصه ، لا هو ملك ولا هو شيطان ، لأن له دوراً آخر في هذا الكون ، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان .

ويتمى هذا المشهد ، ليتلوه مشهد آخر في السياق :

ينظر الله سبحانه بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطردة إلى آدم وزوجه .. وهنا فقط نعرف أن له زوجاً من جنسه ، لا ندرى كيف جاءت . فالنص الذى معنا وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء ، وكل الروايات التى جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا تملك أن نعتمد عليها ، والذى يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه ، فصارا زوجين اثنين ، والسنة التى نعلمها عن كل خلق الله